

تاريخ القبول: 2025/11/08

تاريخ الإرسال: 2025/06/16

تاريخ النشر: 2025/11/30

تشكل علم المعاني بين تنظير الجرجاني وتطبيق الزمخشري.
The science of meanings is formed between the
theory of Al-Jurjani and the application of Al-
Zamakhshari.

عبد الهادي حمر العين

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميله (الجزائر).

البريد الإلكتروني: hamrelaine.abdelhadi@centre-univ-mila.dz**الملخص:**

لما اتسعت الفتوحات الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم من العرب، وضعف الاعتماد على الذوق وحده، صار لزاما وضع قواعد تخرج بكلام العرب من إطار الذوق العام إلى مجال التنظير والتقعيد، فشرع عدد من أئمة اللغة والبلاغة يضعون قواعد تؤسس للبلاغة العربية وعلومها مؤصلة لها بمختلف فروعها؛ وتوالت هذه المحاولات حتى اكتملت وصار للبلاغة فروعها الثلاث، (البيان، المعاني، البديع) ما عزز حضورها بين علوم اللغة بل باتت من أبرز علومها؛ مركزين على فهم مقاصد الكلام وبيانه وصولا إلى جماليته وتأثيره على السامع، فطرح الجاحظ مسائل أصول هذا العلم - البلاغة - ووفق كثيرا في تفصيله وتقعيده خاصة فرع البيان منه، وهنا نتساءل ما جهوده في تأسيس وتأصيل وتقعيد علم البلاغة العربية؟ وما الإضافات التي ذكرها وفق فيها؟

مرحلة النضج والتعديد عند أشهر علماء البلاغة.

أما النتائج المتوخاة من البحث؛ فتتخصر في أن نرى اكتمال مباحث علم المعاني مع جدية وفطنة الجاحظ ومن تلاه من أئمة البلاغة العربية وصولاً إلى عبد القاهر الجرجاني الذي أسس وقعد ونظر للمعاني حتى صار علماً وفرعاً من فروع البلاغة العربية.

ويتجلى هدف البحث في؛ إبراز علم المعاني من مرحلة الارهاصات والتأسيس إلى مرحلة التطبيق والتعمق في فهم علاقة المعنى بالنحو والتركيب والترتيب.

الكلمات المفتاح: تنطير، المعاني، تأسيس، تعديد. تشكل

عبد الهادي حمر العين، hamrelaine.abdelhadi@centre-univ-mila.dz

Abstract:

When the Islamic conquests expanded, and the Arabs mixed with others, reliance on taste alone weakened. It became necessary to establish rules that would elevate the discourse of the Arabs from the realm of taste to the field of theory and foundation. Consequently, several imams of language and rhetoric began to formulate rules that lay the groundwork for rhetoric and its various branches. These attempts continued until they were completed, and rhetoric acquired its three branches: (elocution, meanings, and embellishment), which strengthened its presence among the sciences of language and made it one of its most prominent disciplines. The focus was on understanding the purposes of speech and expressing them to reach their beauty and impact. Al-Jahiz presented the foundations of this science – rhetoric – and was very successful in detailing and establishing it, especially in the branch of elocution. So, who is Al-Jahiz, and what were his efforts in establishing and grounding Arabic rhetoric? This research aims to highlight the

emergence of the science of meanings from the stage of preliminary developments and foundations to the stage of maturity and establishment among the most famous rhetoricians. The expected results of the research are limited to showing the completion of the discussions on the science of meanings, along with the seriousness and acumen of Al-Jahiz and those who followed him among the imams of Arabic rhetoric, culminating in Abdul Qahir Al-Jurjani, who founded, established, and theorized meanings until it became a science and one of the branches of rhetoric.

Keywords: Justice, meanings, foundation, theorizing, codification.

1. مقدمة:

نال الذوق مكانة كبيرة عند العرب في تحديد جميل القول من قبيحة عند العرب؛ كونه الميزان الذي اعتمدوه لتلمس مواطن الحسن من الرديء فيما يعرض من الكلام على السامع والمتلقي، وله بعد ذلك أن يقف عنده ويكشف أسرارهِ ويسبر أغواره، ثم يعلل له بما أوتي من الذوق والمعرفة، والالمام بجوانب الموضوع، وبما يمتلك كذلك من قدرة على الغوص والتحليل¹.

وهنا يتجلى ما قيل عن البلاغة والذوق؛ إن من الشعر لحكمة وأن من البيان لسحرا. يدل هذا القول على متعة علم اسمه البلاغة العربية، هذا العلم الذي انبرى أرماة من العلماء يرفعون لواء هذا العلم يصنفون فيه ويشرحون أصوله وأسسهِ وقواعده، بدءاً بأبي عبيدة معمر بن المثنى مؤلف "مجاز القرآن" إلى ظهور الجاحظ عمرو أبي عثمان (المتوفى 255هـ) ويعد من كبار أئمة اللغة ومن أبرز علماء المعتزلة، وهو بحق موسوعة في التأليف بكثرة التدوين وحسن التبويب؛ صاحب البيان والتبيين، وغيره الكثير من المؤلفات القيمة في البلاغة وغيرها من علوم اللغة.

2. آراء الجاحظ في البلاغة من خلال كتابه البيان والتبيين:

طرح الجاحظ في مصنفه - البيان والتبيين - آراءه بنزعة فلسفية عقلية، متأثراً في ذلك بما قرأه من الفكر اليوناني الذي يعتمد العقل ويقدسه، فلم يغفل الجاحظ في جميع ملحوظاته في كتابه هذا عن التحليل العقلي والتعليل المبين والنقد المنطقي، إذ كان لا يقبل أي شيء لا يراه منطقياً، أو يرفضه عقله، إذ كان لا يكتفي بمجرد نقل ما سمع أو رأى، بل كان من خلال "بيانه" أن يضع أسساً لغوية وبلاغية تكون أرضية لعلم البلاغة، إذ يجمع الكثيرون على أن الجاحظ في مؤلفه "البيان والتبيين" أنه تأسيس حقيقي لعلم البلاغة، وولادة أكيدة لها.

يرى أبو هلال العسكري في - الصناعتين - أن البيان والتبيين أكبر كتب البلاغة وأشهرها وأهمها في تأسيس علم البلاغة العربية، فهو كثير الفوائد، جُمُ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والإشارات اللطيفة، والملاحظات الدقيقة، وبخاصة ما نبّه إليه من تفهيم للبلاغة وفنون الخطابة، وغيرها من الفنون والفروع، ولغته الحسنة في الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة.⁽²⁾

ولا شك أن مرحلة الجاحظ كانت بحق تأسيساً للبلاغة ولعلم البيان وطرقاً أصيلاً لمباحث المعاني فقد كان له فضل كبير في ظهور علم البيان وتأسيس قواعده وتوضيح معالمه، إذ اتسعت بفضل هذه الملحوظات البيانية، وذلك لما يملكه من ملكة لغوية، وفطنة كبيرة تؤهله إلى أن يبدي بملاحظات الدقيقة، فكان كتابه البيان والتبيين لبنة أساسية في تقعيد البلاغة وتأصيلها وجعلها علماً مستقلاً بذاته وبفروعه عن العلوم اللغوية الأخرى.

3. علم البيان:

علم البيان من المباحث المهمة في البلاغة، بل هو أبرز فروعها على الإطلاق، وكان من أبرز علماء اللغة طرْحاً وتطرقاً بهذا العلم هو الجاحظ، وقد تعمق فيه كثيراً في مؤلفه البيان والتبيين، ونظراً لاهتمام طلاب العلم في زمانه

بالنحو فقد صرح تصريحاً لم يفهمه الكثير منهم، بل أثار جدلاً بذلك وانتقد من أجل هذا التصريح الذي يقول فيه: «وأما النحو فلا تشغل قلب الصبي به إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد عن ذلك فهو مشغلة مما هو أولى به»⁽³⁾، لم يفهم هذا التصريح فهما بريئاً، وربما أراد الجاحظ بتصريحه هذا توجيه طلاب العلم آنذاك إلى قراءة كتابه، والاطلاع على علم البيان، هذا العلم الجديد الذي أراد الجاحظ التأسيس له، ولعلم البلاغة.

إن تصريح الجاحظ لم يرد به التقليل من شأن النحو ودراسته، والانشغال به، ولكن أراد لعلم البيان الانشغال به أيضاً.

- ماذا يدرس علم البيان؟

يدرس علم البيان الصورة البيانية في الكلام، فهتم بـ: الكناية، والمجاز بأنواعه، والاستعارة، ولا شك أن للصورة جماليةً ينشدها المتكلم، لا يكشفها إلا البياني البارع، فيبين أسرار وخبايا ومكونات أرادها المتكلم فيكشفها، ويكشف أغراضه، فيفهم المتلقي ما أراد المتكلم أن يصل إليه.⁽⁴⁾

وأوائل من طرّقوا باب هذا العلم؛ أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه "مجاز القرآن" ولكنه لم يوفق في التنظير والتفصيل له. وجاء بعده ابن قتيبة (المتوفى: 276هـ) الذي غاص هو الآخر في المعاني، فطرق تبويهاً في النسق والترتيب، في كتابيه **الشعر والشعراء** وأدب الكاتب، ولكنه رغم تعمقه لم يبلغ ما بلغه الجاحظ في تدوين الملاحظات، وتعريجه على شتى مسائل البلاغة، ثم كتب بعده ابن المعتز (المتوفى: 296هـ) مؤلفاً ثميناً تناول فيه أنواع ما تأسست عليه البلاغة، فسمى مؤلفه "**البديع**" أما قدامة بن جعفر (المتوفى: 319هـ) فزاد أنواعاً على التي ذكرها ابن المعتز بالتبسيط وحسن التبويب.

وتعد هذه المحاولات أخذت البلاغة منحى جديدا تمثل في اتجاهين متقابلين؛ الاتجاه الأول اهتم أصحابه بإعجاز القرآن الكريم، ومنهم أبو الحسن الرماني (المتوفى: 384هـ) في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" وقد قسم البلاغة إلى عشرة أقسام نحصرها في الجدول الموالي:

النوع	الشرح
الإيجاز.	ونعني به الاختصار والحذف في غير ما بتر أو إفساد للمعنى، والبلاغة تعني الإيجاز.
التشبيه.	ويقصد به وجود علاقة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر.
الاستعارة	وهي نوع من المجاز اللغوي وهي تشبيه حذف أحد طرفيه مع وجود قرينة تمنع حضور المعنى الحقيقي.
التلاؤم	يقصد به حسن توظيف الحروف في التأليف وانتقائها بما يناسب المعنى، وهو أحد أهم شروط البلاغة، وعكسه التنافر ويعني؛ ما يصيب الكلمة أو الكلام من ثقل يشكل عبئا على النطق. ويمكن هنا الحديث عن فصاحة اللفظ من عدمه.
الفواصل	قليل: الفواصل بلاغة، والأسجاع عيب؛ وهي ما يتردد في باب السجع عن الفقرة، ويُقصد بالفواصل؛ الجملة التي تنتهي بها الفاصلة، وهذا ما يشبه السجع في البديع، رغم أن السيوطي فرق بين الفاصلة والسجع.
التجانس	هو تكرار الأصوات المتطابقة أو المتشابهة في الكلمات أو المقاطع التي تظهر بالقرب من بعضها البعض، إما من حيث فونيمات حروف العلة أو غيرها.
التصريف	ويُقصد به تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة، لمعان مقصودة لا تتحقق إلا به - أي بهذا التحويل - وأهمية التصريف كبيرة في البلاغة، إذ يدل على شرف اللغة العربية، وفضلها على اللغات الأخرى، فالكلمة تتقلب إلى ضروب من كثرة، باختلاف ميزانها الصرفي بين ثلاثية أو رباعية أو يزيد؛ مع الدلالة على معنى واحد. ويعدده اللغويون

والبلاغيون وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، ويكمن إعجاز القرآن في هذا الباب بتجلي كبير، خاصة في قدرته على أن يأتي في المعنى الواحد، بالدلالات المختلفة، فيما هو من البلاغة في أعلى طبقاته.	
يُقصد به تضمين وإفادة الكلام عدة معانٍ من غير تحديد له باسم أو صفة، وهو - وإن كان من المحسنات البديعية اللفظية التي يزدان بها الكلام - فهو في الوقت ذاته مظهر من مظاهر التألق في تجلية المعاني وحسن تأديتها.	التضمين
سمى بعض علماء البلاغة هذا الوجه بالإفراط، وهي الدلالة على كبر المعنى على جهة التعبير عن أصل اللغة لتلك الإبانة أي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال، ما يكون أبلغ فيما قصد.	المبالغة
ويعني إظهار المعنى المقصود والكشف عنه وإفهامه، فالمعاني خفية ومحجوبة مكنونة، لا يظهرها إلا الإخبار عنها، وهو بمعنى الوضوح والانكشاف والإظهار للمعنى الغامض، والإعراب عما في النفس من خواطر وأفكار، بل لا تختلف دلالات هذا البيان عنده، عن تلك الدلالات التي يتحقق بها البيان	حسن البيان

ثم واصل الخطابي (المتوفى: 388هـ) بعد هؤلاء في رسالته "البيان في إعجاز القرآن" وركز في رسالته على أقسام البلاغة، كما تحدث عن اختيار الألفاظ، ويعتبر ذلك إشارة للنظم في الكلام، وصولاً إلى مرحلة أبي بكر الباقلاني الذي وضع كتاباً ذاع صيته تناول فيه إعجاز القرآن وسمّاه "إعجاز القرآن"، أمّا الاتجاه الثاني؛ فكان أصحابه يهتمون بالبيان أكثر من الإعجاز، ويمثلهم أبو هلال العسكري

صاحب "الصناعتين" فاهتم بالبيان في الشعر والنثر، ومعنى الصناعتين؛ صناعة الشعر وصناعة النثر.

ليبرز ابن سنان الخفاجي صاحب "سر الفصاحة" ويعدّه ألف ابن الأثير - في القرن الخامس الهجري - كتابه الشهير "المثل السائر" وحتى هذا التاريخ لم يفرق علماء اللغة بين البيان والبدیع والبراعة والفصاحة، ويعتبرون هذه المصطلحات شيئاً واحداً.⁵

4. علم المعاني:

علم المعاني من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث البلاغة التي تتصل بالجملة وما يطرأ عليه من تقديم وتأخير أو ذكر وحذف أو فصل ووصل أو تعريف وتكثير أو إطناب وإيجاز.⁶

وقد كان المتأخرون يستعملون لفظ المعاني متصلاً بلازمة غير متفرد؛ كأن يقولوا معاني القرآن، معاني النحو، معاني الشعر...

ويعد الجرجاني عبد القاهر من أكثر علماء اللغة والبلاغة تطرقاً لعلم المعاني دون أن يفرد له باباً خاصاً ويسميه علم المعاني، ونجده في كتابه "دلائل الإعجاز" يخصص له مجالاً واسعاً، ومباحث عدة من خلال نظريته الشهيرة "نظرية النظم" وقد كان في ملحوظاته البلاغية دقيق النظر شريف المقصد، يقول عنه أحمد مطلوب: «إنه يعرض الفكرة عرضاً هادئاً ثم يقلب الأمر على وجوهه حتى يصل إلى النتيجة التي يسعى إليها».⁽⁷⁾ وقيل عنه أنه كان من أكابر أئمة العربية والبيان⁽⁸⁾، وللجرجاني كما ذكرنا له كتابان نفيسان في البلاغة العربية وعلومها هما: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

- ماذا يدرس علم المعاني؟

يدرس علم المعاني الجملة وتفصيلها ومكوناتها وما يطرأ عليها من: تقديم وتأخير، تعريف وتنكير، خبر وإنشاء، حذف وتكرار، تقيد وإطلاق، فصل ووصل، إيجاز، مساواة، إطناب، قصر، إسناد...

أما ظهور عبد القاهر الجرجاني فيعد مرحلة تأسيسية لعلم المعاني، ونجد في مؤلفيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" إضافة قيمة إلى علم البلاغة وفهم المعاني، إذ استطاع الشيخ الجرجاني أن يضع نظرية كاملة متكاملة تُعنى بفهم العلاقة بين اللفظ ومعناه، وعلاقة ذلك بالنحو ومقاصد الكلام وحسن التأليف في البلاغة العربية، وقد سمى هذه النظرية بنظرية النظم.

- المعنى في فهم عبد القاهر الجرجاني:

لقد اكتملت في القرن الخامس الهجري عملية نضج للعلوم والتأليف والإبداع، فشملت علوم العربية؛ من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وفقه لغةٍ ونقدٍ وعروضٍ وغير ذلك من العلوم، وجمعت في هذا العصر كلُّ دواوين الشعر، وألفت المعاجم ودوّنت المفردات؛ كما برزت طوائف مختلفة من متكلمين وأشاعرةٍ ومعتزلةٍ، هؤلاء الذين عالجوا مختلف القضايا العلمية والأدبية والدينية بمنطق العقل والاجتهاد، معتمدين في ذلك على حرية الإدلاء بأرائهم وحق مناقشتها والدفاع عنها.

ومن أهم ما تميز به هذا العصر نبوغ أبرز البلغاء وأشهر المنظرين لها خاصة ما تعلق بفرعها الثاني وهو علم المعاني. ويعد عبد القاهر الجرجاني المتوفى (سنة 471هـ). شافعي المذهب، أشعري الأصول، ونجده قد طَبَّقَ الكثير من مبادئ الأشاعرة خاصة فيما تعلق بالاجتهاد والجدل وذلك على مؤلفاته فأثر ذلك كله على فهمه للمعاني ومن ذلك علاقة اللفظ بالمعنى، وبدا ذلك جليا في كتابيه " أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" اللذين برزت شهرته من خلالهما، وبرز فيهما مدى تعلقه بفهم المعنى وربطه بالنحو وطريقة تأليف الكلام، ويُعدُّ الألفاظ خادمة للمعاني وأوعية

تتبعها سواء أ في جمالها وحسنها أم في قبحها، ويرى أن الألفاظ لا تتفاضل فيما بينها من حيث هي ألفاظ مجردة أو كمفردات، وإنما تتفاضل في مناسبة المعنى ويظهر ذلك حين يستحسن السامع ويستأنس بلفظ وما يحمل من معنى على آخر.⁹

وقد برز الشيخ الجرجاني أيضا في مجال النحو، وكانت له مختارات، وعروض وإعجاز، وأكثرها مخطوط. عدّ بكتابه "دلائل الإعجاز"، كما أثبت تمكنه حتى أصبح صاحب نظرية لغوية دقيقة، كان هدفه الأساسي بيان مدى إعجاز القرآن، الذي بلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة.

إذن فعلم المعاني؛ يدرس كل هذه الأمور وغيرها في الجملة العربية، ولعل الجرجاني توسع في هذه المباحث لأنه أغفل عليها في كتاباته السابقة، ظنًا منه أنها مباحث ثانوية وغير أساسية في الجملة، يستدرك ذلك ويؤلف دلائله وينشأ نظرية النظم الشهيرة.

ونظرية النظم تتطرق من أمرين هما؛

أ- المعنى الذي نريد التحدث عنه.

ب- اللفظ الذي نعبر به عن هذا المعنى.⁽¹⁰⁾

واختلاف موضع اللفظ في التركيب؛ يؤدي بالضرورة إلى اختلاف المعنى والنحو، وعلم المعاني علم يهتم بترتيب الألفاظ في الجملة، وترتيبها يغير المعنى. فإذا قلت: نجح زيد ليس كقولك: زيد نجح.

فالأولى؛ حضر زيد: تبدأ بالحضور وتهتم به، قبل ذكر اسم زيد، وكأن زيد لم يفاجئنا بحضوره، كما أن إعرابها يكون كالآتي:

حضر: فعل ماضي مبني على الفتح.

زيد: فاعل مرفوع بالضمّة الظاهرة.

أما قولنا: زيد حضر: فقد بدأنا بذكر زيد، كأن زيد فاجأنا بحضوره.

زيد: مبتدأ مرفوع بالضمّة.

(حضر): جملة فعلية من فعل وفاعل مستتر في محل رفع خبر.

ج- كيف طرح عبد القاهر الجرجاني مبادئ نظرية النظم؟

شرح عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز شرحاً وافياً مفصلاً، ففي مقدمته يعرف النظم بأنه؛ تعليق الكلم بعضه ببعض، وجعل بعضه بسبب بعض، ومعلوم أن الكلم من وجه النحو يأتي على ثلاثة أنواع: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، لا يعدو ثلاثة أقسام؛ تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما، وبذلك كان أول عمل ربط فيه بين نظم الكلام والنحو، ولا بد هنا من مراعاة المعاني النحوية والصرفية للكلم.

إنّ؛ النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات. ومنه؛ فالنظم أن تضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل وفق قوانينه وأصوله، وهذا التحديد الشامل يوضح العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني في فهم معاني الألفاظ والعبارات.

د- كيف طبق الجرجاني النظم على الجملة العربية؟

طبق الجرجاني قواعد النظم على النصوص العربية التي تختلف في ترتيبها عن الفارسية باعتباره فارسي الأصل فتناول؛ دور علم المعاني في فهم علاقة اللفظ بالمعنى، في نظرية لغوية متكاملة لها أركان أربعة:

5. أركان نظرية النظم:

أ- ركن التقديم والتأخير:

وهو باب له فوائد كثيرة، وله محاسن عديدة، ويكون على وجهين؛

إما تقديم على نية التأخير؛ كخبر المبتدأ في قولك: ناجح عمرو، ومعلوم أن ناجح مسندة لعمرو، وإما الوجه الثاني؛ تقديم ليس على نية التأخير؛ وهو أن تنقل الحكم من حالة إلى حالة، أو من إسناد إلى إسناد؛ وذلك لعل بيانية ولفضل بلاغي من جهة المعنى، إذ يتغير المعنى الكلام حين تقدم أو تؤخر.

أمثلة عن التقديم والتأخير وأغراضه البلاغية:

قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) (البقرة: 124)؛ هنا تقدم ذكر سيدنا إبراهيم على ربه لأنه استخلفه على الناس والإمام يتقدم الناس لقيادتهم، ثم قدم الناس على الإمام لأن الناس حين يتولاهم الإمام - الذي يتقدمهم - يصبحون أولى منه بالرعاية من حيث المسؤولية.

ب- ركن الحذف:

ويقصد به حذف كلمة في الجملة وليس حذف حرف في الكلمة، ويكون سبب الحذف لغرض يريده المتكلم؛ كأن يريد الإيجاز أو الإخفاء أو الخوف مما يقول، أو تبجيل المحذوف أو احتقاره أو شيئاً آخر ينشده المتكلم.

أمثلة عن الحذف وأغراضه البلاغية:

لاحظ قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَعِظُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ بِالْإِثْمِ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ لَئِنِّي لَأَتَّخِذُ فَلَانًا خَلِيلًا) (الفرقان: 27) فالله تعالى أضر اسم الظالم وهو؛ أمية بن خلف ولم يذكر اسمه احتقاراً لما له جزاء سوء أعماله واكتفى بالإشارة إليه بالظالم وفلاناً وهنا نجد الحذف احتقاراً للمحذوف.

وقول بشار بن برد:

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائِمٍ ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالِمٍ

وفي قوله أيضاً في القصيدة نفسها:

فما زلتَ حتى استنصر الدينُ أهله عليك فعادوا بالسيوف الصوارم

في البيت الأول حذف الشاعر خبرَ (سالمٍ) وأصل الكلام: (ولا سالمٌ من الموت أو الهلاك عمّا قليل بسالمٍ)؛ خوفا من الخليفة الذي قد يتهمه بإرادة قتله وفي ذلك هلاك الشاعر أو سجنه، فجعل الخبر محذوفا ويحتمل تأويلات عدة؛ ولا سالمٌ من الناس مثلا، أما في البيت الآخر فقد حذف؛ خبر ما زلتَ وتقدير الكلام، فما زلتَ تهينُ الدينَ وهي أيضا تهمة تقتله أو تستدعي سجنه، فجعل الخبر أيضا يحتمل تأويلات عدة كأن نقول: فما زلتَ لا تحافظ على الدين أو تعاليمه مثلا.

ج- الفصل والوصل وأغراضه البلاغية:

ونعني بهما حسُنُ تخيّرِ حروفِ العطف وخاصة حرف الواو في الكلام ومتى تذكر حروف العطف (الوصل) ومتى تحذف (الفصل) وثال ذلك؛ قوله تعالى: (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) (المطففين: 22-23) هنا يستوجب الوصل بالواو لوجود التضاد بين التعبيرين؛ ومنها قوله تعالى (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاءً بما كانوا يكسبون) (التوبة: 82) وهنا وجب الوصل أيضا، أمّا الفصل فمثاله قوله تعالى: (هو الله الخالقُ البارئُ المصورُ) (الحشر: 24) فلا يصح هنا ولا يحسن توظيف الواو لأنّ المقام هنا تعدد أخبار وصاحبها واحد وهو المولى تبارك وتعالى.

د- الفروق في الجملة والأغراض البلاغية:

ويقصد بذلك الفروق في وجوه الخبر ووروده بأحوال مختلفة كقولك: عمرٌ متفوقٌ والمتفوقُ عمرٌ ومتفوقٌ عمرٌ.... ويتجلى النظم هنا في اختلاف معاني هذه الجمل باختلاف ترتيبها ومقصدها وسياقها، وكذلك مجيء الحال في وجوه متعددة تختلف باختلاف ترتيبها ومقصدها وسياقها.

ملخص القول في نظرية نظم الجرجاني:

لا شك أن الذي يحكم على مدى صواب أو خطأ نظرية نظم الجرجاني عليه أن يفهم مسألة التقديم والتأخير، وكذلك الفصل والوصل في الكلام ومتى يحسن الفصل ومتى يجب الوصل بحروف العطف وبخاصة الواو، ويفهم أيضا الإظهار وضده الإضممار، ومعاني الاستفهام والنفي، وأسباب الحذف أو الذكر، ومواطن التعريف والتذكير، وغير ذلك من مباحث وقضايا علم المعاني، التي طبق الجرجاني نظريته تطبيقا عمليا منهجيا على كل هذه المباحث في لغة العرب بدءا بآيات من كتاب الله، وعلى نصوص من أشعار العرب الموثوق بفصاحتهم، فنجدته قد جمع بذلك بين النظرية والتطبيق، وأسس لفرع هام من الدراسات البلاغية والنقدية استطاع أن يفيد بها كل من اهتم بعده بهذا المجال.

6. تطبيق الزمخشري للنظم في فهم المعنى:

الزمخشري؛ جار الله الزمخشري الفارسي المعتزلي (المتوفى سنة 538هـ) الذي تفوق في دراسة العلوم اللغوية والدينية معا، صاحب تفسير (الكشاف)، و(المفصل) في النحو وغيرها من المصنفات، وقد حظيت مؤلفاته وآراؤه باهتمام من جاءوا بعده فشرحوها كثيرا نظرا لثرائها، ومن أهم شروحه ابن يعيش الذي شرح؛ كتاب الفائق في غريب الحديث، ومعجمه أساس البلاغة، الذي ركز فيه على المعاني اللغوية للكلمة مشيرا لتلك المعاني في بعض التعبيرات بفهم بمعانيها سواء أكانت في ضرب من الحقيقة أم في ضرب من المجاز

ويعد الزمخشري أول من طبق نظرية النظم على تفسير القرآن، وقد وفق في ذلك كثيرا نظرا لذوقه الأدبي الراقي وفهمه لدقائق وخفايا البلاغة وغوصه في فهم المعاني، كما استطاع أن يجمع بين فهم الأشاعرة للمعاني بدراسته الدقيقة لجهود عبد القاهر الجرجاني ونظريته اللغوية - نظرية النظم - وبين فهم المعتزلة وآرائهم وهو من كبارهم.

لقد ركز الزمخشري في كتابه أسرار البلاغة بتصوير دقائق الفروق في الصور البيانية، مستشهدا بكثير من الآي الحكيم، مفسرا ما جرى فيها من جمال بلاغي، دون توسع في ذلك. وكان ضرورياً أن يواصل هذا العمل الجليل بمزيد من الشرح والتبسيط، فيشرح ما طرحه أحد أئمة المعتزلة؛ وهو الزمخشري الذي برع في الشعر والنثر وله من الفطنة ودقة الحس ورهافة الشعور ما أعانه على ذلك، إذ أفاد من طروحات المعتزلة والأشعرية معا في فهم في تصوير بلاغة القرآن المعجزة، والمعاني التي يخرج إليه اللفظ القرآني، وسرعان ما صمم أن يجعل ذلك من صميم عمله، ولم يلبث أن استفاد من كتابات عبد القاهر خاصة في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فدرسها حتى تمثلها تمثلاً كبيراً، وهو تمثل جعله يؤمن بأن المعرفة بالبلاغة وأنماطها وأساليبها لا تكشف فقط عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم وإنما تكشف عن معانيه وخفاياه المكنونة، ويصرح بذلك في كشفه.¹¹

وهذا يعني ان الزمخشري انتقل من التنظير إلى التطبيق والتعمق في فهم المعنى غير منفصل عن النحو والتركيب، فتغير ترتيب اللفظ يغير في موقعيته النحوية وفي المعنى، فلا تقديم أو تأخير أو حذف إلا ويقابله تغير في النحو والمعنى.

7. خاتمة:

- تعد مرحلة اشيخ عبد القاهر الجرجاني مرحلة تأسيس وتبلور حقيقي لعلم المعاني.
- إن نظرية النظم المبنوثة في كتاب دلائل الإعجاز للجرجاني تزال كثيرا من اللبس والغموض على مباحث كثيرة في فهم المعاني وعلاقتها بالتركيب والنحو.
- من أبرز القضايا التي ركز عليها الجرجاني في فهم المعنى داخل نسيج الجملة؛ التقديم والتأخير، الحذف، الفصل والوصل، الفروق في الخبر والحال،....

- يعد الزمخشري من فحول البلاغة الذين قدموا إضافات ولطائف سمت بالمعنى من إطار النظير إلى التطبيق والممارسة.
- استطاع الزمخشري بفننته وجديته في تناول مباحث البلاغة في فهم المعنى من تبسيط نظرية النظم وتطبيقها عمليا وعلميا على تفسير القرآن الكريم.

8. المراجع

- ¹ - ينظر: طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى القرن الرابع هجري، ص: 29.
- ² - العُدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، أبو علي ابن رشيق القيرواني، تحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت، ط. 05، 1981م / ج 1/171.
- ³ - رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقق، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، 1384هـ / 1964م، ج 1/171.
- ⁴ - البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط 10، 2005م، ج 2/124.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص: 29.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص: 32.
- ⁷ - عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، ط. 01، الكويت، 1393هـ / 1973م، ص: 18.
- ⁸ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج 2/106.
- ⁹ - أساليب بلاغية الفصاحة، البلاغة، المعاني، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، ط. 01، الكويت، 1980م، ص: 67.
- ¹⁰ - البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، د. فضل حسن عباس، ج 1/85.
- ¹¹ - البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط. 09، القاهرة، ص: 220.